مقياس تحليل نصوص

ماستر 1/ السداسي 2

تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر

أستاذ المقياس: أ.د. علي العبيدي

محاضرة رقم (6)

عنوان المحاضرة

اثر الايديولوجيا في تحديد رؤية المؤرخ للنص

من الأمور الإشكالية التي تواجه المؤرخ هو التأرجح ما بين البعد الابستمولوجي والبعد الإيديولوجي، وهذا التأرجح هو الذي يجعل عمل المؤرخ في تفاوت بياني في الاقتراب الى الغاية المنشودة من قراءة النص التاريخي وتوظيفه بالشكل المناسب. لأننا نجد أحيانا مؤرخا يقرأ النص و يفسيره مستخدما معطيات منهجه القائم على انتماء أيديولوجي. لاسيما واننا نعلم أن مناهج تفسير التاريخ متعددة ما بين رؤية ماركسية متمثلة في المادية الجدلية التاريخية أو التفسير الديني أو التفسير الإثني القائم على الشعوبية ، أو مناهج الحداثة و ما بعدها في عصر سيادة الرأسمالية بأنماطها المختلفة التي تمثلها البنيوية أو التفكيكية والظاهراتية، فضلًا عن مدارس التحليل النفسي الداعمة في قراءة النص التاريخي و ابرز من مثلها: فرويد وألفريد أدلر وايريك فروم، ومن ثم يظهر هنا دور الأيديولوجيا لتمثل أداة فاعلة لقراءة النص ، خصوصًا ان طبيعة الموضوع هي التي تحدد طبيعة المنهج مثلما أقر ميشيل فوكو.

عندما يتعرض المؤرخ الفاحص النابه لتناول النص التاريخي بالدراسة و التحليل فإن أول ما ينتبه إليه هو البيئة الحاضنة لذلك النص، تلك البيئة هي مكونات النص أي الواقع المادي المتمثل في البناء السوسيو- اقتصادي و السوسيو- سياسي ، ويتخذه كمرشد له على حلحلة الاشكالية التي يواجهها أثناء

قراءته للنص ، إلا انه عادة ما تظهر عدة مشكلات، اعتبر اخطرها هي تلك المتعلقة بالأيديولوجيا التي سرعان ما تفرض نوع من السطوة المنهجية على المؤرخ، فتنزلق به إلى مزالق تبعده تمامًا عن التناول الصحيح للنص التاريخي، و تزيد من الإشكالية التي يقوم بمعالجتها، الأمر الذي تترتب عليه آثار أخرى تقذف به إلى اللاتاريخية والانغماس في أطر هامشية معزولة عن واقع النص، والاهتمام بالمصطلحات الحداثية المبهرة– التي عادة ما تتصل بالعلوم الأنثروبولوجية– على حساب الوقائع التاريخية المراد تناولها و تحليلها والوصول إلى نتائج أقرب إلى الصواب نسبيًا، واعتقد أن مرد ذلك إلى اسباب عدة منها:

أ- البعد عن التاريخية: بمعنى أن يستغرق المؤرخ في الكشف عن السمات العامة التي يتحدث عنها النص(المشتملات) عن طريق تبني المناهج الحداثية التي أفرزها نمط الانتاج الرأسمالي وهي المتمثلة في البنيوية أو التفكيكية والظاهراتية وغيرها، خاصةً اذا كان موضوع النص متعلق بنواحي حضارية أو سياسية ، فيتم تفكيك النص إلى أفكار منفصلة ثم يعجز المؤرخ عن تجميع الأفكار مرة أخرى، و يظهرها في سياق منعزل عن وعاءه الحاضن له و هو الواقع التاريخي.

ب- الانبهار بالمدارس الحداثية: وما بعدها في الغرب الرأسمالي، و ازدادت تلك الهيمنة الفكرية على المؤرخين، لاسيما مؤرخي العالم الثالث، بعد عولمة الرأسمالية كنمط للإنتاج؛ ليشيع منظروها المصطلحات المبهرة والنقدية التي توظف في قوالب تصلح للأدب والثقافة والأنثروبولوجيا وجعلها عن عمد بعيدة عن أطرها التاريخية، غاضين النظر عن الواقع المشكل حتى لكل ذلك البناء الفوقي؛ لذا اعتبر ذلك نوع من التآمر المعرفي وتوجيه لحركة سير الأحداث التاريخية من الصراع الطبقي الاجتماعي إلى تهميش البناء التحتي واعتباره ثانويًا، تحت زعم وادعاء زائف بأن العوامل الاقتصادية ليست هي الوحيدة المنوطة بتفسير التاريخ.

ت- سطوة الأيديولوجيا: وهي الأخطر و الأهم فمن الضروري أن يكون المؤرخ صاحب أيديولوجيا تعبر عن رؤيته و دوافعه لتناول النص التاريخي بالتحليل و القراءة، لكنها في نفس الوقت تجعل المؤرخ أسيرا لها، غير

قادر على إدخالها في مجال العقل الجدلي الواعي، بل تجعله ان يقوم بأخطر عملية انحراف منهجيًا ومعرفيًا و أكثرها حماقة وهي تطويع واقع النص؛ ليتماهى مع ايديولوجيته حتى يثبت أنه توصل إلى نتائج علمية لا يقطعها الشك ، فضلًا عن أنه يلوي عنق النص و ينطقه ما لا ينطق به، وهذا ما عبر عنه بول هاميلتون بوصفه الراديكالية التاريخية، ومآل ذلك هو سطوة الأيديولوجيا من حيث تكوين رؤية مسبقة من قبل حتى قراءة النص جيدًا وتفنيد مكوناته و محاولة استقراءه، بحيث تصبح الاستنتاجات مصبوبة في قوالب جاهزة تقدم للقارئ، هذا الأمر يفضي بالضرورة إلى عدة نتائج خطيرة على المستوى المنهجي و الابستمولوجي، منها اتصاف منهجه باللاتاريخية و البعد عنها، واعتساف الأحكام التاريخية الناتجة عن لي عنق النص و تطويع الواقع لخدمة أيديولوجيته ، التحريفية التي تؤدي إلى الوقوع في تهمة التآمر المعرفي .

خلاصة القول، فالنص التاريخي هو معبر عن الماضي، إذن فيجب تحليله في ضوء ظروف الماضي لا في ضوء ظروف الحاضر ، وبمنهجية علمية قائمة على دراسة مكونات البيئة الحاضنة له وهو الواقع المادي، وتناوله بشكل جدلي اعتمادًا على التراكم الابستمولوجي الذي أنتجه هذا الواقع التاريخي، و تم تسجيله في الوثائق و المصادر و على العملات والمسكوكات والكتب، التحرر من سطوة الأيديولوجي– أي عدم جعلها دوغما- هي عامل أساسي و مهم في عدم تحريف سيرورة و صيرورة الحركة التاريخية، فماركس الأمين الذي رصد واقع العالم بصدق و منهجية علمية رصينة رأى بأن الايديولوجيا هي كل فكر لا يستجيب لواقعه ؛ لأن الأيديولوجي وحدها بمعزل عن الواقع هي ليست علمية ، وليست واعية طالما لم تستعرض نشاط الإنسان و عملية تطوره المادي.